جناح

الأمانات المقدسة

وأقسامه

دائرة البردة النبوية الشريفة
أو جناح الأمانات المقدسة

أُنشئ هذا القسم في عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ـ١٤٨١ م) تحت اسم "الحجرة الخاصة"، وكان السلطان يقيم في هذا المكان حيث يوجد عرش السلطنة، ويتولى إدارة بعض شؤون الدولة ويؤدي صلاته وعبادته. وكان عدد خدام الحجرة الخاصة (دائرة البردة الشريفة) أربعين، ٣٩ منهم من الضباط ذوي الرتب العالية المرافقين للسلطان على الدوام، والشخص الأربعون هو السلطان نفسه. وعندما بدأ السلاطين يستخدمون القصور المطلة على البوسفور مكانا لإقامتهم بعد عام ١٨٠٨ م، تم تخصيص هذا الجناح لحفظ الأمانات المقدسة وعرف باسم "دائرة البردة الشريفة" أو "جناح الأمانات المقدسة".

مساحة الدائرة ٢٣×٢٣ متر مربع، وتتكون من أربعة أقسام مسقوفة بأربع قبب. تنفصل الحجرات والقاعات عن بعضها بجدران سميكة. القسم الأول وهو مدخل الدائرة عبارة عن قاعة استقبال واسعة يتوسطها "شادِرْوَان" (نافورة) من الرخام تقع تحت القبة تماما، ولذلك تسمى قاعة الشادروان. الحجرة الأولى على يمين المدخل هي قاعة العرض (عرض خانه) حيث تعرض القضايا على السلطان، والثانية التي تقع في الزاوية هي "الحجرة الخاصة" أي قاعة العرش، والأخرى التي تقع في شمال قاعة الشادروان والتي تدعى اليوم بـ "حجرة الدَّسْتِمال" أي حجرة مناديل البردة هي حجرة خدام دائرة الحجرة الخاصة. يدخل من قاعة العرض (عرض خانه) إلى المكان الذي يعرف بـ "خزانة السلاحدار" أو "خزانة الأمانات". أما مدخل دائرة بردة السعادة والمعروف بباب النافورة حيث يؤدي إلى فناء "الأندرون"، فقد تم ترميمه في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠). وكان السلطان أحمد الثالث من مشاهير الخطاطين، فكتب كلمة التوحيد بنفسه على باب قاعة النافورة، وكتب على جانبي كلمة التوحيد مصراعين من الشعر على هيئة "طغراء" قال في الأول "مالك الدنيا السلطان الأمجد"، وفي الثاني "خادم الشريعة السلطان أحمد"، ونقش فوق هذه الكتابة بشكل طغراء صغيرة اسم السلطان أحمد الثالث.

وما أن تدلف إلى شمال باب قاعة النافورة قليلا حتى تجد منصة كبيرة من الرخام أمام قبة الرواق. على هذه المنصة كان يوضع نعش السلطان بعد وفاته ويتم نعيه والترحم عليه. إنه لذو مغزى عظيم أن تلتصق غرفة العرش مع منصة النعش. ويوجد في إحدى زوايا المنصة الرخامية بئر مغطاة؛ هذه البئر كانت تستعمل لوضع الغبار أو الكناسة التي تحصل أثناء تنظيف الحجرة الخاصة، أي أن السلاطين

المنصة التي تقع إلى شمال مدخل دائرة البردة الشريفة أنشئت في القرن السادس عشر، وهي المكان الذي كان يوضع عليه نعش السلطان عند الوفاة حيث يتم الترحم عليه. وفي إحدى زواياه بئر مغطاة كان يستفاد من مائها في تنظيف الحجرة الخاصة؛ وفيما بعد استعملت لحفظ كناسة جناح الأمانات المقدسة والأغبرة العالقة عليها إجلالا لصاحب الأمانات المباركة عليه الصلاة والسلام.

برآورده مطرب سرازگران
شده برفلک بانگ نیاگران
قصب دار مردم بینی بانوا
برآورده بشکر یلی راپها

لم يرضوا بإلقاء غبار دائرة البردة النبوية في القمامة إكراما للمكان الذي خرجت منه. كذلك ما أن تلتفت إلى الزاوية التي تقع إلى يمين باب النافورة حتى ترى هاون من الرخام وقد نقشت عليه كتابة بالفارسية. هذا الهاون كان يدق فيه مواد بخور بردة السعادة حسبما تقتضيه التقاليد. وفيما يلي وصف إعداد هذا البخور:

يوضع خشب العود في الهاون، ويدق مع غبار الفحم، ويسحقان حتى يصيرا كالكحل، ثم يعجن المسحوق بماء الورد، وتوضع العجينة في القوالب ليتم تفتيلها. أما مقادير البخور المفتول فهي كما يلي: درهم من العنبر، ٥ دراهم من العود، ١٥ درهما من اللبان، ٥ دراهم من النرجس، ٥ دراهم من ورق الآس، ٦ دراهم من اللادن، درهم كافور، ٣ دراهم أنرج، قليل من المسك، ٨ دراهم من السكر، وكمية كافية من فحم الصفصاف. وكانت العادة أنه حينما يأتي السلطان إلى قسم بردة السعادة يأخذ رئيس الكتاب بالمبخرة، ويقبها البخور، ويمشي إلى جانب السلطان لتفوح في الأرجاء رائحة شذية.

◀ قاعة النافورة، سليمان «ه»، القرن السادس عشر. طوب قاني، رقم: ٤١٢ ه

◀ الهاون الذي يقع في الزاوية وعلى يمين مدخل دائرة البردة الشريفة مصنوع من المرمر. كانت المواد العطارية ذات الروائح الزكية مثل العنبر والعود تدق فيه، ويصنع منها أقراص تستخدم في المباخر، أو يصنع منها شموع توضع في شمعدانات خاصة. وعندما تشعل تنشر رائحة شذية في أرجاء جناح الأمانات المقدسة.

obeikan.com

قاعة النافورة (شادِرْوان)

كان من عادات التبجيل والتقدير غسل اليدين في النافورة قبل الدخول إلى دائرة بردة السعادة حتى لا يدخل الغبار من الخارج.

في هذا القسم قبتان تحت إحداهما نافورة من الرخام. وكان الموظفون الذين انتخبوا لخدمة الدائرة يتوضؤون من ماء النافورة ويصلون أوقاتهم أحيانا فوق مصطبة توجد في القاعة؛ كما يغسلون أيديهم قبل دخولهم إلى القسم حتى لا يدخلوا الغبار إليه من الخارج احتراما وتبجيلا للمكان.

ويوجد في كل من قبتي قاعة النافورة (الشادروان) فوانيس للإضاءة، كما توجد في كل غرف البناء. وفيما بعد فتحت في أعالي القبب نوافذ للإضاءة، ولكن بسبب بعض الإضافات الجديدة أصبحت تلك النوافذ معدومة الفائدة. أبواب هذا القسم ونوافذه الخشبية، وأبواب قاعة العرض (عرض خانه) وحجرة مناديل البردة (دَسْتمال)، كلها قديمة قدم البناء. لقد نقش على الأبواب بالنقوش الخشبية اسم السلطان محمد الفاتح، والباب الذي يدخل منه إلى الحجرة الخاصة مزين بالصدف. وفي أوائل القرن العشرين أدخلت على الباب بعض التعديلات من قبل المصدّف واصف أفندي. ويلاحظ فوق الباب رباعية بالفارسية لمولانا جلال الدين الرمي معناها بالعربية:

كل الأبواب مغلقة،
ولم يبق للغرباء باب مفتوح، إلا بابك،
يا باب العز والكرم، يا باب النور الساطع،
الشمس والقمر والكواكب والنجوم،
كلها عبيد بين يديك...

جدد رخام الباب والنافذة اللذين يوجدان خلف المصطبة الحجرية أثناء التعديلات زمن السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩)، كما زينت جدران القاعة بالخزف الملون الذي يعود تاريخه إلى أواسط القرن السادس عشر. وفي تاريخ ١٩١٦ وأثناء الترميم أيضا أضيفت بلاطات خزفية جديدة على جدران القاعة؛ وفي نفس التاريخ تم زخرفة القبة وتزيينها بأيدي فنيين مهرة بصورة تنسجم مع زخرفة الجدران.

الحجرة الخاصة

سابقا كانت حُجرةَ العرش السلطاني، ثم خصصت لآثار الرسول ﷺ اعتبارا من عهد السلطان محمود الثاني.

الحجرة الخاصة هي أهم مكان في دائرة البردة الشريفة؛ وارتفاع قبتها على القباب الأخرى هو للإشارة إلى أنها حجرة السلطان. تم تجديد قبتها على الطراز المملوكي في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) بعد عودته من سفرته إلى مصر عام ١٥١٧ م، كما أدخلت عليها تعديلات في العصور اللاحقة.

وجدير بالذكر أن السلاطين العثمانيين كانوا يبيتون في الحجرة الخاصة، ويمارسون حياتهم اليومية فيها. وذلك ابتداء من عصر السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١ م) إلى أواخر النصف الثاني من القرن السادس عشر. وفي عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥ م) صار السلاطين يمضون أكثر لياليهم في قسم الحريم بحجراتهم الخاصة بهم، وبقيت الحجرة الخاصة لممارسة حياتهم اليومية. وكانت العادة أن تقام طقوس جلوس السلاطين الجدد على كرسي العرش في هذه الحجرة، حيث يلبس السلطان تاج السلطنة ويستقبل التهاني، ثم يلي ذلك إجراء المراسيم الرسمية أمام باب السعادة.

أما العرش السلطاني الموجود حاليا في الزاوية الشمالية من المدخل، فقد صنعه كبير صيّاغي القصر الدرويش "زيللي محمد" والد "أوليا جلبي" في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠ م)، وهو يشبه الخيمة ويقوم على أربع أعمدة وقبة ذات مرآة. وقد تم تزيين سقف القبة من الداخل بأفضل النقوش وأروعها، وذلك في القرن السابع عشر؛ بينما نقش على القسم الخارجي من القبة كتابة تقول "مسند القبة، سرير السلطان، صاحب المقام الأعلى". وفي ذلك العصر كانت

باب الحجرة الخاصة من صنع الصداف واصف الهندي. كتب على مصراعي الباب أبيات لمولانا جلال الدين الرومي والتي يقول فيها: كل الأبواب مغلقة / ولم يبق للغرباء باب مفتوح إلا بابك / يا باب العز والكرم، يا باب النور الساطع / الشمس والقمر والكواكب والنجوم / كلها عبيد بين يديك.

شخصيتان مهمتان تخدمان في قسم الحجرة الخاصة، وهما كبير محافظي الأسلحة وكبير رجال المعية. لمنمة مرسومة من قبل الرسام "الودني" تعود إلى عهد السلطان أحمد الثالث. طوب قابي، رقم: ٢١٦٤-٢. b

السلام علیک یا رسول الله

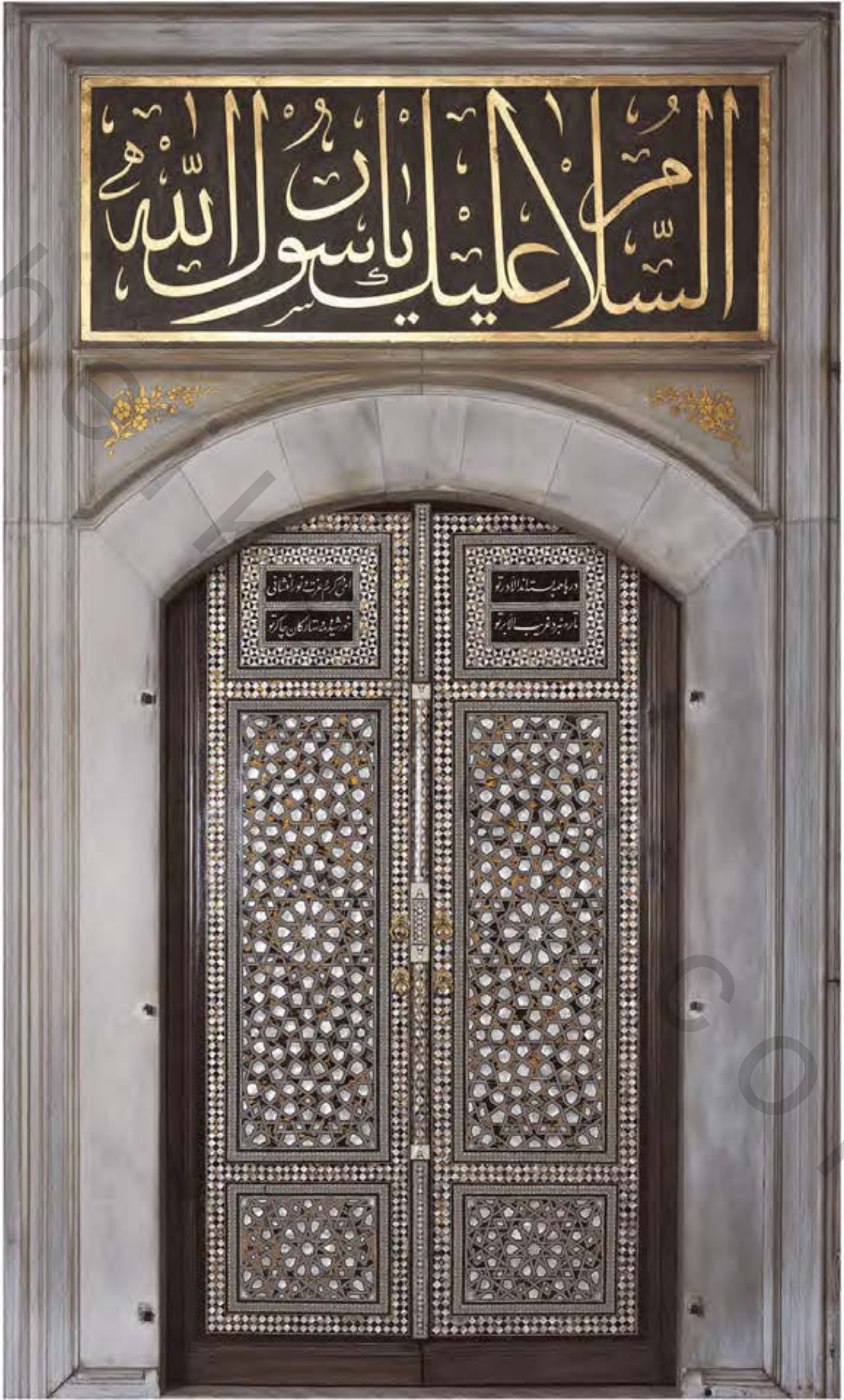

المقصورة الفضية في الحجرة الخاصة. صندوق البردة الشريفة وكرسي العرش داخل المقصورة.

بردة السعادة، إضافة إلى أمانات مباركة أخرى، تحفظ في خزانة داخلية غطاؤها من حديد وراء الكرسي وفوق رأس السلطان. وفي نفس الجهة طاقة صغيرة في الجدار بحجم المحفظة الداخلية للأمانات المباركة. وقد كتب السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) في يومياته أن بردة السعادة وضعت في صندوق مزخرف بجانب العرش السلطاني فوق رف خصص لها.

وبعد أن غادرت العائلة السلطانية قصر طوب قابي إلى قصور البوسفور خصصت الدائرة بكاملها للأمانات المقدسة وجعل العرش السلطاني موضعا لها حيث تربعت عليه. وبعد ذلك التاريخ أنشأ السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) في الزاوية مقصورة فضية من ست شبكات. وقد وضعت بردة السعادة داخل المقصورة الفضية في صندوق ذهبي كبير على منصة مرتفعة. والمقصورة مغطاة من الجهة الأمامية والخلفية بشبكة مزخرفة بخيوط فضية مكتوب عليها "اللهم صل على نبي الرحمة، اللهم صل على شفيع الأمة، اللهم صل على كاشف الغمة، اللهم صل على مجلي الظلمة، اللهم صل على مولي النعمة، اللهم صل على معطي الرحمة" وآيات من سورة آل عمران.

والجدران الداخلية للحجرة مزخرفة بلوحات الخزف الإزنيكي التي أمر السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣) بوضعها، وقد كتب على شريط خزفي "قصيدة البردة"، وفي وسط القبة آيتان من سورة الأحزاب رقم (٤٦-٤٧)، وفي ذيل القبة الآيات الثمانية الأولى من سورة الفتح.

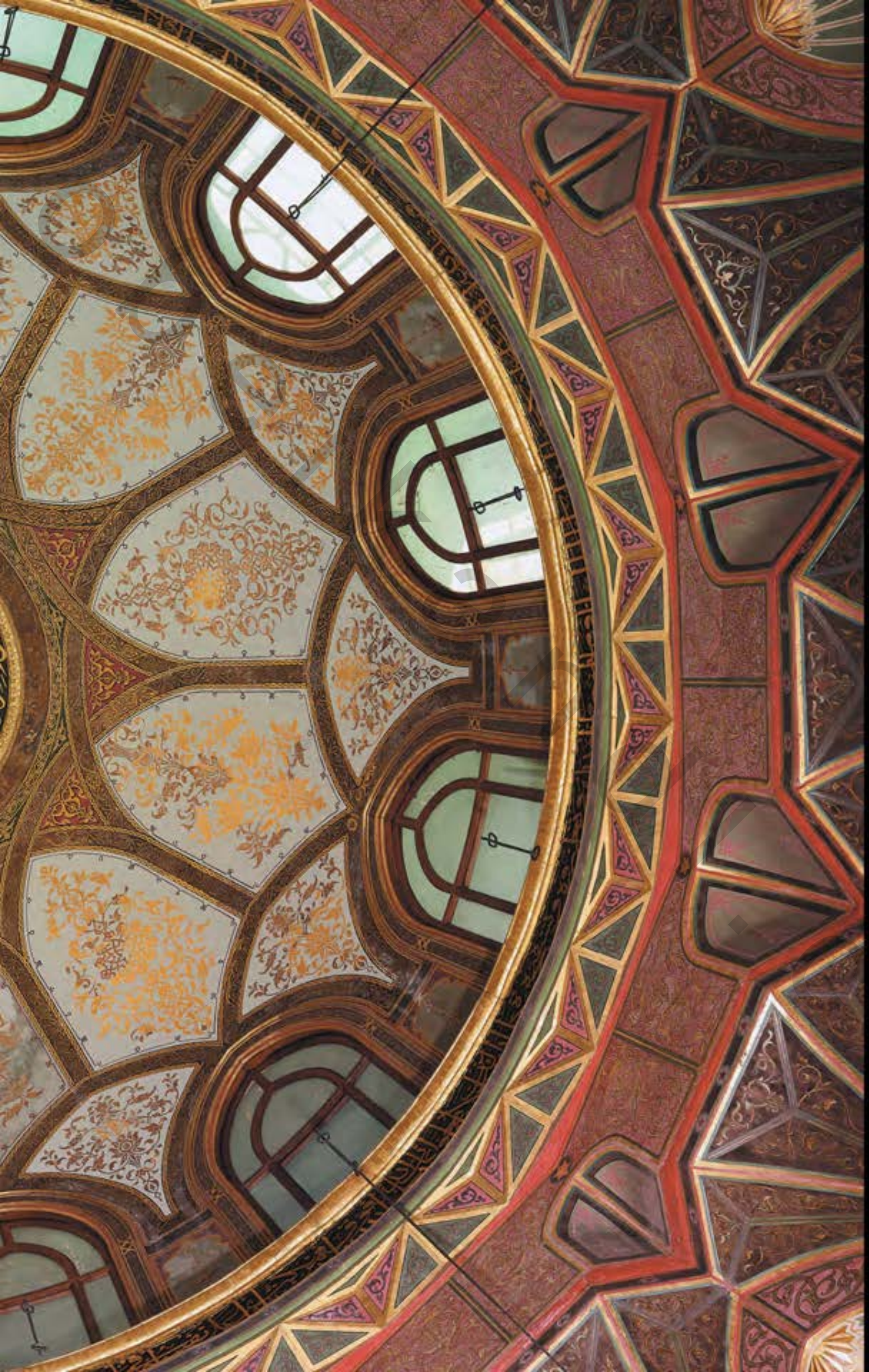

قبة الحجرة الخاصة في القرن السادس عشر تم ترميمها طبقا للطراز المملوكي في الزخرفة والعمارة تم تجديد القبة سنة ١٩١٦

لوحة خزفية في الحجرة الخاصة، صناعة مدينة إزنيك التركية.

وعلى شمال باب المدخل موقد من الرخام المصنوع حسب نمطين من أنماط العمارة الأوروبية المشهورة في ذلك العهد، وهما طراز "باروك" و"أمبير"؛ وعلى أطراف الموقد وأعلاه زخارف ونقوش على طراز "روكوكو"، وفي وسطه طغراء السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩). ويحتفظ بالأمانات المقدسة في خزانة كبيرة بجدار الحجرة الخاصة وداخل المقصورة الفضية.

وفي العهد العثماني كان في دائرة بردة السعادة صندوق يحتوي على خشب العود والعنبر والبخور والمباخر ومحافظ ماء الورد، ورفوش ومكانس مزينة بالقماش الرقيق. وكانت عملية تنظيف الأرضية والجدران تتم مرة في الأسبوع؛ بيد أن تجلية أطراف الأبواب والنوافذ وصقلها بالزيت لكي تلمع كان يتم مرة كل واحد وعشرين يوما. وأثناء هذه العملية تخرج الأشياء المباركة المذكورة من الخزانة، ثم تعاد إليها بعد تنظيفها من قبل خدام الحجرة.

واليوم، صندوق بردة السعادة والعرش السلطاني الموجود داخل المقصورة الفضية، والمحفظة التي تضم اللواء الشريف، وسيف النبي ﷺ وقوسه وترسه... كل ذلك يمكن زيارته ورؤيته من خلف الحائل الزجاجي الفاصل بين الحجرة الخاصة وقاعة العرض (العرض خانه).

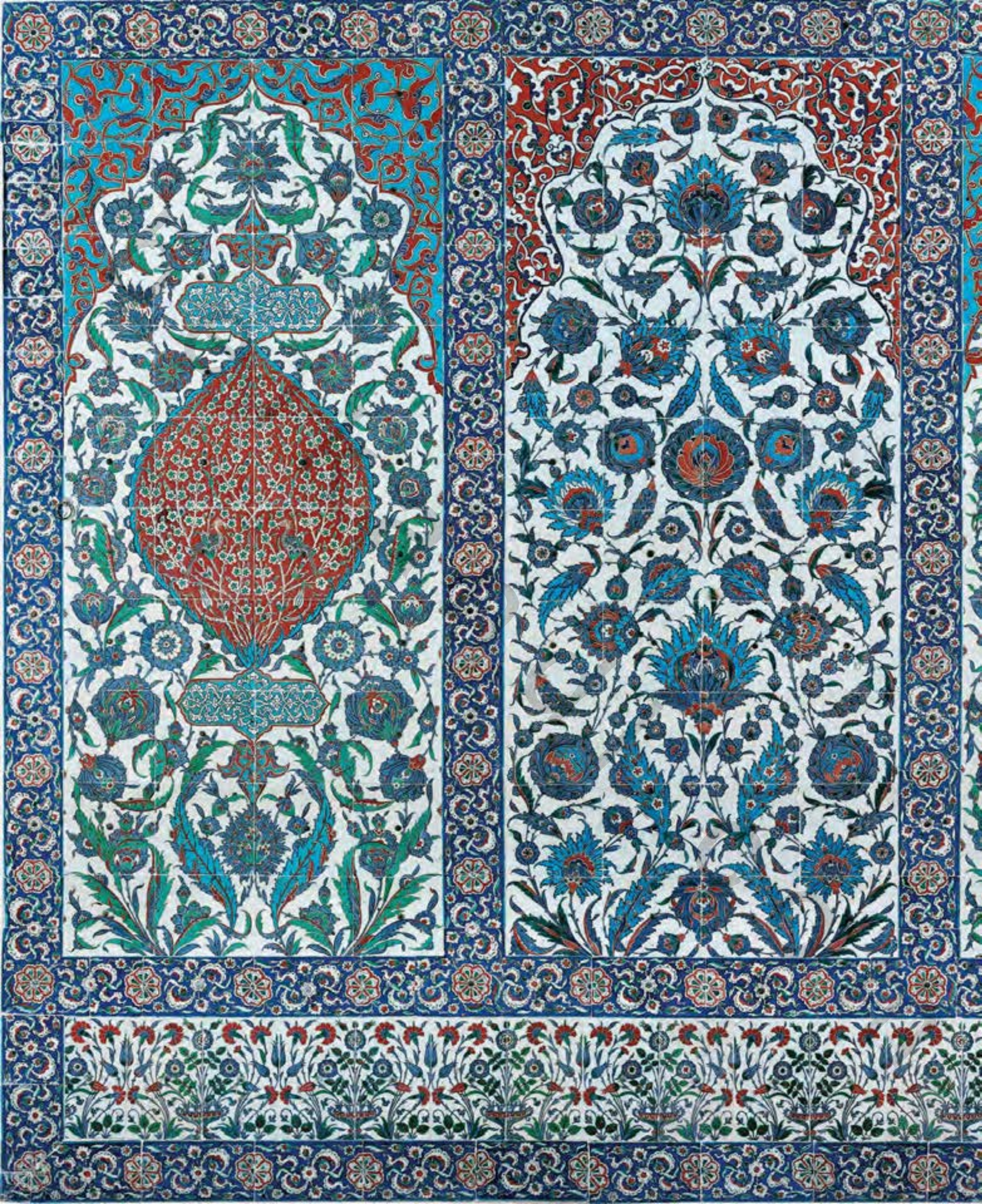

حجرة مناديل البردة (دَستِمال)

سميت هذه الحجرة بحجرة الدستمال، أي المناديل؛ لأن مناديل بردة السعادة كانت تصنع في هذه الغرفة حيث تتكون من قماش رقيق مزركش يكتب في وسطه وأطرافه أبيات من الشعر في مدح الرسول ﷺ، وتوزع على زوار دائرة البردة الشريفة، وذلك في القرن التاسع عشر، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقا.

أدخلت على حجرة مناديل البردة تعديلات كثيرة على مدى الأزمان؛ فقد كانت طوال عدة قرون مخصصة لمبيت أفراد الأندرون الذين يقومون بخدمة السلطان ويتدربون على تدبير شؤون الحكم بالقرب منه، وكان عددهم يقارب الأربعين فردا. والداخل إلى حجرة مناديل البردة يلاحظ على جدرانها عدة كتابات، أقدمها كتابة تتعلق بإصلاح الحجرة ويعود تاريخها إلى ١٠٢٧ هـ (١٦١٧-١٦١٨ م). كما يوجد كتابتان تعودان إلى تاريخ ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧- ١٦٣٨ م) و ١٠٤٩ هـ (١٦٣٩- ١٦٤٠ م)، وذلك في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠)، وتتحدثان عن إنشاء قبة للحجرة الخاصة وتزيين جدرانها بالخزف المزخرف بأشكال بديعة. أما الكتابات الأخرى فهي تعود إلى تواريخ لاحقة وتتحدث عن الإصلاحات والتعديلات التي أدخلت على حمام السلاحدار وحجرة كاتب سر السلطان. كذلك كتابات أخرى تتحدث عن الأوقاف المالية التي قام بها السلاطين من أجل إصلاح وتزيين هذا المكان.

فتحت حجرة مناديل البردة أبوابها للزوار عقب الترميمات عام ١٩٩٧ في شهر رمضان المبارك. ويمكن للزائر أن يرى بين الأمانات المباركة الموجودة في حجرة مناديل البردة نماذج لبعض السور التي كتبت من قبل كتّاب الوحي في عهد الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام مثل سورتي الهمزة والتكاثر، إضافة إلى رسائل أرسلها النبي ﷺ إلى مسيلمة الكذاب والمنذر بن ساوى أمير منطقة الإحساء، إلى جانب المصحف الشريف الذي كان -كما تقول الروايات- سيدنا عثمان ﷺ يقرأ فيه أثناء استشهاده. (وجدير بالذكر أن هذه الآثار المباركة لا تعرض على الزوار إلا في شهر رمضان المبارك من كل سنة ثم تعاد إلى المستودع لكي لا يلحقها أي ضرر بسبب فلاشات آلات التصوير). وكذلك يوجد في هذه الغرفة عصا سيدنا موسى عليه السلام، وطنجرة حجرية لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وسيف داوود عليه السلام، وعمامة أويس القرني ﷺ، واللحية الشريفة، وأثر القدم الشريفة، وسيوف سيدنا عثمان وسيدنا عمر رضي الله عنهما، وأباريق لماء زمزم، وكسوة الكعبة المعظمة، وعمامة سيدنا يوسف عليه السلام، ومناديل مكتوب على أطرافها ووسطها أبيات من الشعر وغير ذلك من الآثار.

قاعة العرض (عرض خانه)

المناديل السلطانية التي تشرّف بعلامة البردة الشريفة، توزع على الزوار وعشاق الحب المصطفى، يكتب عليها بعض الأبيات التي تعبر عن هذا الحب العميق.

يدخل إلى هذه القاعة من الباب الأول الواقع إلى يمين قاعة النافورة. كانت قاعة العرض تسمى حسبما تذكر المصادر التاريخية "أرسلان خانه"، أي عرين الأسد، لأن أمهات السلاطين كنّ يخاطبن أبناءهن السلاطين في هذه القاعة بـ "يا أسدي". أما النوافذ الموجودة في القبة فقد فتحت في القرن السادس عشر والثامن عشر، وهناك لوحة كتب عليها آيات من القرآن الكريم. في هذه القاعة كان السلطان يلتقي مع ضباط الأندرون ويستمع إلى مطالبهم أو شكاواهم، لذلك سُميت بـ "عرض خانه" أي قاعة العرض. وكذلك حينما كان الصدر الأعظم وأركان الدولة يأتون لمقابلة السلطان كانوا ينتظرون في هذا المكان حيث يقدم لهم المسك والعنبر والقهوة ومعجون السلطان -وهو نوع من الحلوى يصنع من عدة مواد عطارية- ريثما يؤذن لهم بالدخول إلى حضرة السلطان. كما كانت العادة أن يمثل في هذا المكان كل من الصدر الأعظم وكبار رجالات القصر لتقديم التهاني بحلول يوم زيارة بردة السعادة، وذلك اليوم هو الخامس عشر من شهر رمضان المبارك، وغيره من الأيام الفضيلة. وبما أن هذه القاعة تحتوي على محفظة الحجر الأسود، ورسالة سيدنا رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط، وأثر قدمه المباركة، وختمه عليه الصلاة والسلام، وتراب قبره الشريف، ورباعيته ومحافظ اللحية الشريفة، ومحافظ لواء السعادة والقرآن الكريم، فهي مفتوحة للزوار على الدوام.

خزانة الأمانات (خزانة السلاحدار)

يدخل إلى هذا القسم من قاعة العرض، حيث يوجد فيه أشياء قيمة كان السلاطين يستعملونها، إضافة إلى أشياء كانت تستخدم في الحجرة الخاصة من شمعدانات وجواهر كريمة وكتب ثمينة وأوان مختلفة وأسلحة ودراهم ذهبية وفضية؛ كل ذلك كان ضمن مسؤولية "السلاحدار"، أي كبير محافظي الأسلحة. وكان يدعى هذا المكان بـ "قسم الشمعدانات" حتى أوائل القرن العشرين، وقد استعمل لأغراض متعددة في أوقات مختلفة عبر التاريخ العثماني.

وشاورهم في الأمر
١٣٠٧
قرة عين حضرت فخر رسله

صفة شريفة دعوت نامه سی

شهور مضمار رسالت قافله سالار کتیبه نبوت شرف افزای تختگاه سروری ذبوریخشای رؤی یعنبدی فخر الانبیاء والمرسلین
حبیب محترم جنابی العالمین سید الوری حضرت محمد المصطفی علیه وعلی اله افضل الصلوة واتم التحایا اقتضای موجب مباهات
وفخرت ومستوجب شرف بیغایت اولاد خرقه شریفه عالیجاه ویده لطیفه صاحبه میرالیک دیدنه قدیمه دولت علیه اوزره
اثبو ماه صیام مغفرت انجامده رضی زیارت وجیبه سای حراعت ایله مظهر فیضه ومفخرت اولمغه اوزره شهد شریفک اوبه شخی
کون ساعت الیده ایکیه سرای والای حضرت خلد فتنهجه عزیمت اولنمغه مصمم اولمغه زات والای میریاری اولمجلس کردی
انبی وموفق قبضه یاهالقدسیه خائز اولدیکدن

دائرة بردة السعادة
وزيارتها في شهر رمضان المبارك

نموذج من الدعوة التي كانت ترسل لحضور حفلوس زيارة بردة السعادة في شهر رمضان المبارك.

شهد قصر طوب قابي في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) عادات جميلة وتقاليد جديدة، منها يوم إخراج وتقبيل بردة السعادة. ففي عام ١٥١٧ م وما تلاه من الأعوام كانت العادة أنه حينما يقترب اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك، ترى كل سكان القصر وقد سرت في أبدانهم خفة وحركة ونشاط حيث ترسل قوارير مليئة بماء البخور إلى الباشوات والوزراء وشيخ الإسلام والوزير الأعظم وكبار رجال الدولة والعلماء المدعوين لحضور حفل تحية بردة السعادة. في هذا اليوم، الكل في منتهى البهجة والفرح حيث يرتدون أزياءهم الجديدة التي تليق بمقام الزيارة

وشرفها دون أن يضعوا ميداليات أو أوسمة على ملابسهم، وذلك لكيلا تعلق بصرر البردة الشريفة أثناء الانحناء للتقبيل فتنـــزلق وتسقط من مكانها.

ويعطر المكان بماء البخور المركب من المواد التالية: ٢٠٠ درهم من الصندل الأصفر، ٢٠٠ درهم من زهرة بخور مريم، ١٨٠ درهم من خشب العود، ١٤٠ درهم من أسيلبند، ٧٠ درهم قرموز، ٣٠ درهم لوطور، ٥٠ درهم بذر بصل، ٢٠ درهم عرق سمسم، ١١ درهم إصلاح المسك. وتوضع العقاقير في الصرر وتربط، ويؤتى بإناء يوضع فيه ١٥ أوقية من ماء الزهر، ٢١٢ أوقية من ماء الورد. ثم تسكب العقاقير في الإناء ويغطى فمه ويغلى على النار مدة اثنتي عشرة ساعة، ثم ينـــزل ويترك حتى تصل درجة حرارته إلى مستوى معقول، ويؤخذ السائل الحاصل ويوضع في إناء آخر. ثم يتم إحضار ٣٠ درهم صندل أصفر، ٢٠ درهم بخور مريم، ١٨ درهم من خشب العود، ٢٠ درهم مسحوق كلنبك، ١٥ درهم أسيلبند، وتوضع هذه المواد في صرر وتربط، ثم تغلى على النار ١٢ ساعة أخرى، ثم تنزل وتبرد، وبعد ذلك يضاف إليها ٥,١ مثقال من المسك، ٥,١ أوقية من ماء الورد، ويوضع الجميع في إبريق ويخضّ حتى تختلط ببعضها جيدا. وكلما خض الإبريق أكثر كلما كانت رائحة البخور أفضل. وقد اكتشف هذا النوع من البخور مصطفى آغا الأنقروي وتم تخصيصه للقصر فحسب. وبما أن إعداد هذا البخور صعب ويحتاج الى تكاليف مالية كبيرة كانت تجمع لأجله تبرعات من سكان القصر.

وفي اليوم الرابع عشر من شهر رمضان المبارك ينقل الصندوق الذي يحتوي على بردة الرسول عليه الصلاة والسلام ذات الأكمام الطويلة والواسعة إلى "قصر رَوَان"، ويكنس جميع أنحاء دائرة بردة السعادة جيدا، وتغسل الجدران بماء الورد بطاسات من الفضة، وتصقل الأعمدة ثم تبخر بالمسك والعنبر ويوقد بخور العود. وعمليات التنظيف والتزيين هذه تُجرى من قبل خدام الحجرة الخاصة. وبعد إكمال عملية التنظيف تعاد الأمانات المباركة إلى مكانها بالدعاء والصلوات الشريفة تحت إشراف رئيس الحجرة الخاصة برفقة ما يقارب ١٥ شخصا من خدام الحجرة الخاصة.

وبحلول اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك، وقبل صلاة الظهر يجتمع أركان الدولة والعلماء وقادة فرق الإنكشارية وفرق الفرسان أمام باب السعادة المعروف بباب الأغوات البيض منتظرين مقدم الصدر الأعظم. ويخرج شيخ الإسلام من غرفته ويسير نحو جامع أياصوفيا لأداء صلاة الظهر. وما أن يبلغ نبأ وصول شيخ الإسلام إلى الجامع حتى يأتي الصدر الأعظم إلى باب السعادة ويتوجه مع رفاقه من رجالات الدولة إلى الجامع. وبعد أداء الصلاة يسيرون جميعا في موكب عظيم وسط مدائح وصلوات نبوية شجية حتى يصلوا قاعة العرض، فيجدوا السلطان وقد صلى الظهر في حجرته الخاصة وجلس على كرسي العرش ينتظر قدومهم.

وينبغي أن نذكّر أن خدام الحجرة الخاصة يأتون إلى الحجرة الخاصة قبل صلاة الظهر

شمعدان غطي للبخور، قطع من البخور الأسطوانية، طوب قابي، رقم: ١٩٧/٢١

بساعتين ليرفعوا بردة السعادة مع صندوقها الخاص من فوق الطاولة ويضعوها على وسائد حريرية زخرفت بخيوط فضية أجمل زخرفة وزينت أروع تزيين، ويلي ذلك تلاوة متواصلة للقرآن الكريم. وبعد الصلاة يدخل السلطان حجرة بردة السعادة يرافقه شيخ الإسلام والصدر الأعظم والوزراء والعلماء وكبار قادة الإنكشارية وقادة فرق الفرسان وأمين الأسلحة وكبير الحجّاب ورئيس الخدام وأمين المفاتيح بانتظام وحسب ترتيب المناصب حتى تمتلئ حجرة السعادة بكبار أركان الدولة.

ويفتح صندوق بردة السعادة بمفتاح من الذهب يحمله السلطان، ويخرج منه دُرّج من الذهب ملفوف بسبع سُرَر من الحرير المخملي ذي اللون الأخضر المزركش زركشة ناعمة بالفضة. وللدرج فتحتان من الأعلى تفتحان من قبل السلطان بمفتاح آخر من الذهب حيث تخرج بردة السعادة ملفوفة بسبع صرر أيضا. وأثناء هذه العملية يجثو كل من إمام السلطان الأول والإمام الثاني وإمام الحجرة الخاصة والمؤذنون ذوو الأصوات الندية على ركبهم يتلون القرآن الكريم دون انقطاع.

وأخيرا تظهر بردة السعادة، فيلمسها السلطان بإجلال بالغ ويقبلها ويمرغ بها وجهه وعينيه ويطلب الشفاعة من حضرة الحبيب المصطفى ﷺ، ثم يتقدم شيخ الإسلام والصدر الأعظم ومن أومأ إليه السلطان، فيقبلونها بفائق الاحترام ويمرغون بها وجوههم وأعينهم واحداً بعد الآخر.

ثم يؤتى بطست من ذهب ويملأ بماء زمزم ويبلّ ذيل بردة السعادة فيه. وفي هذه الفترة يتلو الحاضرون آيات من الذكر الحكيم سراً ويتمتمون بالصلوات على الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

بعد ذلك يتم إخراج ذيل البردة الشريفة من الطست الذهبي ويجفف بدخان العنبر، وهكذا يكون المكان الذي لامسته الوجوه قد غسل أيضا. أما بالنسبة لما تبقى في الطست من ماء زمزم فيوضع في قوارير صغيرة ويختم فمها لتُقدّم إلى كبار رجال الدولة كهدايا، فيكون ذلك الماء فاتحة إفطارهم في المساء؛ كما يسقون منه مرضاهم بنية الشفاء متضرعين إلى المولى تعالى كي يجعلهم من السعداء الذين نالوا شفاعة الرسول ﷺ يوم المعاد. وحينما تنتهي الزيارة تعاد البردة الشريفة إلى صندوقها بعد أن تُصرّ في صررها المخملية السبع، ويقفل عليها من قبل السلطان ويوضع الصندوق في مكانه.

هذه العادة، أي عادة بلّ ذيل البردة الشريفة في ماء زمزم وما يلبها من طقوس تغيرت فيما بعد، حيث صنعت مناديل شفافة معطرة بماء البخور كتب عليها أبيات من الشعر في مدح الرسول ﷺ؛ وجعل السلطان في مثل هذه المناسبات يلامس المناديل الشفافة (دَسْتِمال) بالبردة الشريفة ويهديها للزوار. ومن الأبيات المكتوبة على مناديل البردة المعطرة:

▲ ماء زمزم الذي كان يبلّ فيه ذيل بردة السعادة، كان يوضع في زجاجات صغيرة تختم بالشمع الأحمر وتوزع على كبار الزوار.

◀ خزانة صغيرة تقع وراء المقصورة الفضية التي يحفظ فيها صندوق بردة السعادة في الحجرة الخاصة.

تلك بردته...
كلُّ الشفاه لثَمها ظامئة...
كلُّ الوجوه للمسها عاشقة...
تعالَ اقترب... قبِّلْ وابتهجْ،
وشفاعتَه فَارْجُ وانتظرْ...

وبعد انتهاء طقوس زيارة بردة السعادة ينسحب السلطان للاستراحة؛ وفي المساء تقدم مأدبة الإفطار الخاصة ببيان أهمية هذا اليوم السعيد. وكان من العادة أن يطبخ خدام الأندرون طعاماً خاصاً يقدم إلى الضيوف في هذه المأدبة، وهو عبارة عن بَيض مخلوط بالبصل يستمر طبخه مدة تقارب ثلاث ساعات.

ومن الجدير بالذكر أن زيارة بردة السعادة كانت تتم في شهر رمضان المبارك من كل عام، واستمرت هذه العادة قرونا عدة شملت ما قبل إعلان فرمان "التنظيمات" (١٨٣٩ م) وما بعده، كذلك استمرت في العهد الذي عرف بعهد "المشروطية". وقد شارك الكاتب والأديب الكبير "خالد ضياء اوشكليكيل" في هذه الزيارة أربع مرات كموظف رسمي. يقول: "رأيت الوزراء والعوام من الناس وقد أتوا من أقصى البلاد وأدناها، واستمعت إلى صوت الأذان المرتفع من المآذن، وشهدت تلاوة القرآن بحضور السلطان، وشاهدت البردة النبوية الشريفة من بعيد؛ فلا تسأل عن عظمة ذلك المشهد العجيب، إذ رأيت أناسا ممن أتيحت لهم فرصة الاقتراب من بردة السعادة يمرغون وجوههم بها... ورأيت عيونا دامعة وقلوبا لله خاشعة ووجوها مستبشرة... وأحسست في قرارة نفسي أنني ابتعدت كل البعد عن الهواجس السيئة، وشعرت بلذة روحية ملكت عليّ كل كياني." بهذه العبارات الحياشة عبر الكاتب الشهير عن التأثير المعنوي العجيب الذي تحدثه الأمانات المباركة في القلوب.

ويحكي "علي رضا بك" في مذكراته "إسطنبول في القرن الثالث عشر الهجري" أنه كان الإفطار يقدَّم لرجال الدولة والعلماء في قسم "الأندرون"؛ وبعد اليوم الخامس عشر من شهر رمضان تفتح الأمانات المقدسة أبوابها للزوار المحبين لرسول الله ﷺ. كان الضيوف ينتظرون أذان المغرب في جناح الأمانات المباركة بخشوع، وعقب الأذان يفطرون على ماء زمزم ويصلون المغرب. وبعد ذلك ينتقلون إلى قاعة أمين الخزانة لتناول الطعام اللذيذ والشهي. ويأتي كل واحد من أفراد الأندرون بنوع من الطعام والحلويات أو المشروبات التي صنعها بيده الماهرة. وبعد الإفطار تقام صلاة العشاء والتراويح في حجرة بردة السعادة حسب تقاليد الأندرون مع الابتهالات والأناشيد والمدائح النبوية.

ويصف "روشن أشرف" المشاعر التي أحس بها في إحدى صلوات التراويح التي أداها في حجرة بردة السعادة فيقول:

"ارتفع صوت المؤذن من حديقة الخُزامَى، فاختلط صوته الندي بأصوات البلابل الساحرة، فأحسسنا بسعادة غامرة وخشوع عميق يتناثر على رؤوسنا كماء الورد. وسرنا تحت أشجار الدُّلب

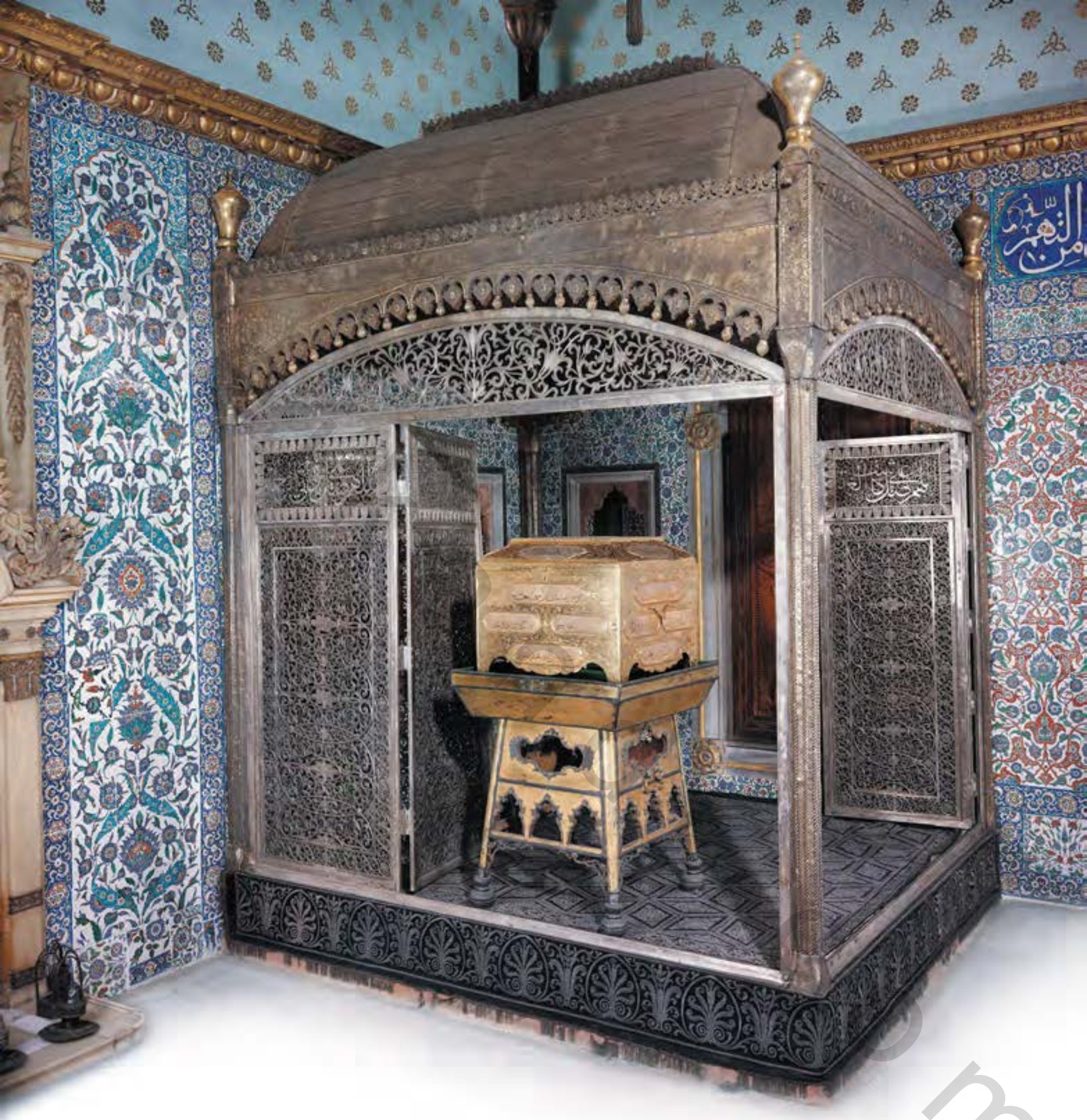

المتكاثفة الشامخة، فامتلأ قلبي بذكريات تاريخ مجيد قد أفل. وبدت الفوانيس الحمراء عبر الدهاليز المظلمة وكأنها نجوم تتلألأ في كبد السماء. فأسندت ظهري إلى عمود رخامي شهد مجد السلاطين قرونا وقد زين بالحرف الرائع. كان صوت القرآن الشجي ينفذ مباشرة إلى قلبي فأحس بربيع العبادة يغمر كل كياني.

بعد ذلك قام الحاضرون ووقفوا صفوفا بين الأعمدة لأداء صلاة التراويح. بين كل ركعتين كان المؤذنون ينشدون المدائح النبوية والصلوات الشريفة بألحان ومقامات مختلفة؛ مرة بمقام الصبا ومرة بمقام الهزام وأخرى بمقام العجم ثم الرست... فغرقت في بحر من النشوة والهيام ونسيت كل شيء حتى الموت، وقلت في نفسي في أيّ عصر أنا يا ترى؟ إذ ما أن يمس كتفي كتف أحد ضباط الأندرون الواقف بجانبي حتى أشعر كأنني لمست أحد الجنود الذين أتوا من الديار المصرية؛ وما أن أسمع أنفاس الشيخ ذي اللحية البيضاء الذي يقف بجواري أثناء القيام والركوع والسجود، حتى يخيل إليّ أنها أنفاس بطل شهد معركة زيكتوار في قلب أوربا؛ وما يكاد يبلغني صوت الإمام حتى يهيأ إليّ أنه صوت المجاهدين السائرين إلى فتح بلغراد؛ وبعد كل سلام أتخيل وكأنني أنظر إلى أحد السلاطين السابقين، وقد وضع سبحته على ركبته يحاسب نفسه ويستغفر ربه ويبتهل إليه بذلّ وانكسار. كل هذه الأطياف مرّت أمامي في هذا المكان الساحر كشريط فيلم، رأيتها وأحسست بها، والفضل في ذلك كله يعود إلى صاحب الذكريات المباركة، الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

الحق يقال، لقد جاب العثمانيون الصحاري والوديان كعشاق متيمين ليأتوا بذكريات الرسول الكريم ﷺ إلى إسطنبول، المدينة التي تنبأ عليه الصلاة والسلام بفتحها قبل قرون... لا سيما بردة السعادة التي تشرفت بملامسة بدن أعظم رسول وأعظم إنسان عاش على وجه الأرض. بهذه التصورات اقتربت من بردة السعادة فتذكرت أصحاب رسول الله الكرام، فتساءلت فيما بيني وبين نفسي، إذا كانت هذه هي مشاعرنا بعد أكثر من ألف عام عند آثار الرسول ﷺ، فكيف كانت يا ترى مشاعر الصحابة الكرام، في أول صلاة تراويح، وفخر الكائنات ﷺ يؤمهم بنفسه، والإيمان حي في القلوب، تحت نجوم سماء الحجاز، وعلى رمالها التي أخذت تخفّ حرارتها؟! يا إلهي!

كنا نؤدي صلاتنا مغمورين بروائح العنبر الساحرة. وكنا نسمع -ولا سيما أثناء السجود- خرير ماء يأتي من بعيد. الروائح العنبرية كانت تأتي من مباخر فضية، والمياه تجري من ميزاب رخامي مزين بالنقش العربي. وفي هذا الجو وعند بردة المصطفى ﷺ كنا نحس وكأننا نسمع حرير الكوثر ونشم رائحة الفردوس.

وكان المؤذن ينادي في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك عند ختام صلاة التراويح: "الوداع الوداع يا شهر رمضان! الوداع الوداع يا شهر البركة والغفران!" ويكرر الجميع كلامه وسط دموع ساخنة وشوق حزين.

في هذا الجو الروحاني الغامر لم أشأ أن أطلب من المولى المتعالي شيئا يتعلق بحياتي الدنيوية الفانية؛ فالدنيا وشؤون الدنيا بدت لي ضئيلة جدا، فتركت نفسي في ذلك البحر اللانهائي من النشوة والسكينة والاطمئنان."

تلاوة القرآن الكريم
في دائرة البردة الشريفة

يقول الكاتب التركي الشهير "يحيى كمال بياتلي" في كتابه "عزيز إسطنبول" (اسطنبول العزيزة): "أثناء رحلاتي اكتشفت حقيقة لا تقبل مراء، وهي أن الدولة العثمانية تقوم على أساسين معنويين. الأساس الأول: صوت الأذان المرتفع فوق مآذن أياصوفيا بأمر السلطان محمد الفاتح، وما زال يرتفع حتى اليوم. والأساس الثاني: تلاوة القرآن الكريم بين يدي بردة السعادة بأمر من السلطان سليم الأول، وما زال يتلى حتى اليوم. فأنتم يا أبطال "أسكي شهر" و"أفيون" و"قره حصار" و"قارص" قاتلتم في حرب الاستقلال من أجل الحفاظ على هذين الأساسين".

إننا لا نعرف بالتحديد تاريخ بدء تلاوة القرآن الكريم في دائرة بردة السعادة، إلا أننا نعلم عموما أنها بدأت في الربع الأول من القرن السادس عشر، وما زالت حتى يومنا الحاضر. كان أربعون حافظا يتناوبون تلاوة القرآن الكريم في هذا القسم، منهم السلطان سليم نفسه بنية استمطار الخيرات من جانب الرحمة الإلهية ودفع البليات. وقد تعرض هذا التقليد السامي للانقطاع في بعض الفترات ولأسباب مختلفة إلا أنه لا يزال قائما إلى اليوم.

إن من أروع الصور التي يقرأها القارئ عن دائرة بردة السعادة والأمانات المقدسة ما كتبه المؤرخ التركي "أحمد رفيق بك" في "جريدة الوقت" يوم ١٨ شباط/فبراير ١٩١٨ م عقب وفاة السلطان عبد الحميد الثاني وهو يصور أحداث تشييع جنازته تحت عنوان "أمام جثمان السلطان عبد الحميد الثاني". والنص فيما يلي:

أمام جثمان السلطان عبد الحميد الثاني

رحل السلطان الصادق... هذا النبأ الأليم عرفته الرعية من الجرائد... تنفس الصبح وأشرقت الشمس فنثرت أشعتها على مياه البوسفور فبدت حزينة، قالت مياه البحر بلسان حالها "إن السلطان عبد الحميد الثاني قد مات بعد أن تربع على عرش الخلافة أربعة وثلاثين عاما، وسيدفن في مقبرة السلطان محمود..."

كان الخبر صحيحا... قد مات السلطان حقا... وسيؤتى بالجثمان من قصر "بيلر بكي" إلى قصر "طوب قابي" ليغسّل ويدفن خلال بضع ساعات. أمام "باب السلام" حارس على رأسه قلنسوة وبيده بندقية، وأمام باب السعادة يستقبل الأغوات البيض زوار القصر وقد غمرهم حزن عميق. تحت القبة أنين مشحون بروعة ذكريات العصور الغابرة وكأنها تبتسم ابتسامة المحزون على وقائع الدهور. وأشعة الشمس تتسلل من بين أشجار السرو وتتناثر على المروج الخضر، وبعض الخدم يجمعون الأوراق المتساقطة على الأعشاب في الصباح الباكر.

مررت من أمام مكتبة السلطان أحمد الثالث، وإذا بخادم يرتدي ملابس سوداء يعدو بسرعة من جهة حديقة الخُزامىَ. الجنازة قادمة... فمشيتُ نحو "سراي بورنو" وإذا بموكب صغير يسير ببطء في الطريق الرملي للحديقة، وزورق كبير يقترب من المرفأ يتصاعد الدخان من مدخنته الصفراء. يا للمنظر الحزين...

أشعة الشمس تسطع على مياه بحر مرمره وشواطئه وتلاله. الحزن والصمت مخيمان على مسجد "الحميدية" وشارع "يلديز" المحفوف بالأشجار السامقة. الموكب الحزين يسير في الحديقة نحو القصر وقد ارتدى الجميع السواد، يحملون محفة جديدة عليها شرشف أبيض. عبد الحميد ينام بدون روح على محفة خشبية، وشرشف الفراش خشن مزركش بخطوط صفر، يتدلى على جوانب المحفة شال مزين باللون البرتقالي والأخضر، كلما هبت الريح يرتفع الشال وتبدو من تحته معالم جسد نحيل ورأس صغير. وأمام الموكب محافظ قصر "بيلر بكي" وبجانبيه صفان من الجند، وحول المحفة أفراد من فرقة الأندرون، والمحفة مرفوعة فوق الأيدي يسير خلفها سليم أفندي نحل السلطان، وأصهار السلطان الباشوات يمشون ببطء وقد غمرهم الحزن والصمت، وفي يد أحد الخدم شاشية (طربوش) السلطان الراحل وقد غطي بمنديل أبيض، وعلى بعد أمتار يقف بستاني القصر مكتئبا. الكل صامت، ليس هناك سوى أصوات الأقدام التي تسير على الطريق الرملي. البحر هادئ والأعمدة البيزنطية القديمة المصطفة أمام واجهة القصر تلمع تحت أشعة الشمس.

مرت الجنازة من أمام حديقة الخزامى، وجيء بها إلى أمام مدخل دائرة بردة السعادة الأخضرالمذهب، وفتح الباب وأدخلت الجنازة العزيزة على الأكتاف، ولم يدخل معها إلا خدام جناح بردة السعادة ثم أغلق الباب. أما أبناء السلطان وأصهاره الباشوات فقد بقوا في قصر المجيدية، والمشيعون أمام باب دائرة البردة النبوية الشريفة.

◀ سبيل الماء والكتابة التي توجد في الحجرة الخاصة على الجدار المطل على قصر بغداد وقصر رواند. هنا، كان السلطان يغسل بعد وفاته. تم تجديد السبيل في عهد السلطان محمود الثاني الملقب بـ "عدلي"، ونقشت الكتابة أثناء ذلك. فوق الكتابة تبدو ظفراء السلطان محمود الثاني. يلاحظ أنه استخدم أسلوب الفن المملوكي على المرمر. أما القطع الخزفية فهي تعود إلى عهود متفاوتة.

امیرالمؤمنین سلطان محمود — خداوندیگانه فخر اجداد
نهادن جبلید رکرامت — ازلدن الیمش حق خیر و معتاد
اوشانبشایکنه اولدی حدنه — جهان عهد همایونده آباد
زمانده اولوب معمور کعبه — قلندی روضهٔ پیغمبر ایجاد
یاپلدی شمدیه جامی فرق پاک — رسول الله ایده اول شاهی دلشاد
بوتو بگه دامنیدر ملتجامز — ایکی عالمدن اندن اولور امداد
معین اولسون حبیب الله وشاپه — ظهیر و دستگیری آل و اولاد
شهنشاه جهانگنه سایه پنده — قصیده ایلدم اول جایه انشاد
مدار فخنه عزتدر بوتاریخ — مقام خرقه بالا اولدی بنیاد
۱۲۲۸

يا لروعة هذا المكان العجيب... كيف لا وقد آوى طوال قرون الخلفاء العثمانيين وأبناءهم. هذا الصرح الأصيل تم إنشاؤه على أجمل صورة، فجدرانه من الخزف الأزرق والأخضر، وقد زينت بلوحات مذهبة وزخرفة فنية راقية تبهر الأبصار وتأخذ بالألباب. وقد كان هذا المكان المبارك سلوى لأرواح السلاطين الذين أتوا بعد السلطان سليم الأول حيث يؤدون فيه عباداتهم، ويبتهلون إلى الله بالدعاء ويتضرعون لينصر جيوش الإسلام، ويسكبون الدموع لذنوبهم بين يدي البردة النبوية السعيدة.

الموقف مؤثر جدا، والحزن مخيم على أرجاء القصر كله. بعد قليل رفعت بعض الحُصُر المسدودة أمام "نافذة الحاجة". كان هناك حائل من الزجاج المثلج الثخين يحجب منظر الخليج، وثختان من السرو الأخضر عليهما مغتسل صغير وضع عليه جثمان السلطان عبد الحميد بلا حراك. وقفتُ حزينا أمام قضبان نافذة الحاجة، وبجانب التابوت يقف أفراد من الأندرون بإجلال وخشوع ينتظرون ساعة تلبية المهمة المطلوبة منهم. وعلى بعد خطوات تلوح الحجرة التي ختن فيها السلطان إبراهيم، يا للذكريات التي خبأتها أركان هذه الحجرة عبر قرون. أما اليوم فبابها المزخرف المغلق وجدرانها المزينة تبدو وكأنها تريد أن تقول شيئا تعبر فيه عن مشاعرها الحزينة إزاء الخطب الجسيم.

أربعة من رجال الدين حول المغتسل المهيب يؤدون المهمة الكبرى، على رأس اثنين منهم عمامتان من اللون الأخضر، وعلى رأس الآخرين عمامتان من اللون الأبيض، وفي أيديهم ألياف وقطع من صابون المسك يغسلون النعش بحياء وخجل، والسلطان العظيم مسجى مكشوف الصدر وما تحت الركبتين. جسد نحيل أهزله المرض العضال، وأزال الموتُ رونقه وأضفى عليه اصفرارا، دقيق الرقبة، أشيب الرأس واللحية، مغمض العينين، تنم حواجبه عن آثار الحزن والكآبة؛ شعر مقدمة رأسه مسبل بعض الشيء على الجبين، أطراف لحيته الشيباء مصفرة قليلا، لا يبدو عليه أثر الشيخوخة، عظام كتفيه وصدره ظاهرة، أبيض الساقين، صغير القدمين، ليس على بدنه شعر ما عدا حول ثدييه وفي إبطيه وعلى أصابعه؛ كلتا يديه مرتخيتان على جانبيه، وأصابع قدميه مفتوحة، جانبه الأيمن شديد البياض، أما الأيسر والظهر فيبدو عليهما بعض الاحمرار، ولكن بصفة عامة متناسب القامة والقوام، كلما غسل ازداد حسنا وبياضا وقد استسلم للمغسلين بالكامل.

هذا، والخدام واقفون أمام الجثمان المهيب بخشوع عميق، وفي أيديهم المباخر والطاسات الفضية، وجناح بردة السعادة يعيش يوما مشهودا، إذ تغلق فيه الصفحة الأخيرة لعهد طويل مليء بالأحداث الجسام، والأنظار كلها شاخصة نحو المغتسل حيث ينام السلطان عبد الحميد مغمض العينين؛ وكلما صب الماء الساخن على الجسد الكريم تصاعد بخار أبيض واختلط برائحة بخور العود والعنبر.

يخيم على المكان سكون عميق، اللهم إلا أصوات أقدام الخدم على الحصير أثناء دخولهم وخروجهم. وكان يقف عند قدمي السلطان وبجانب العمود اثنان من أصهاره بإجلال بالغ ناظرين إلى النعش حزينين باكيين.

في ذلك اليوم الحزين كانت الطبيعة خارج هذا المكان في أبهى صورها وأجمل حللها، وكانت مياه الخليج تتراقص تحت أشعة الشمس الدافئة في شهر شباط، وأشجار الشمشير عارية تستجدي كرم الربيع.

كانت عملية الغسل مستمرة، وجثمان السلطان على المغتسل مغمض العينين أشيب الشعر عاري الجسد. إنه لمشهد مؤثر في القلوب حقا... ها هو السلطان العظيم الذي كان يتحدى العالم بأكمله مسجَّى في غاية العجز والضعف والسكون، وقد أسلم رأسه للمغسلين، وساعداه مسبلتان إلى جانبيه دون حراك. هذا المشهد الرهيب يثير في النفوس حزنا دفينا ويوقظها من غفلتها العميقة.

وأخيرا انتهى غسل الجثمان وجفف بمناشف مطرزة بخيوط من الحرير الأصفر، ووضع التابوت على الأرض، وفرشت الأكفان على التابوت، ووضع الجثمان العزيز فوق الأكفان بكل وقار.

السلطان العظيم عبد الحميد خان لم يفقد وعيه ورشده حتى آخر لحظة من حياته. فأوصى بوضع دعاء العهد على صدره، وبتغطية وجهه بخمار البردة الشريفه وكسوة الكعبة السوداء، فنفذت الوصية حرفيا.

كان المنظر مؤثرا... السلطان عبد الحميد في التابوت، بين أكفانه البيضاء، ودعاء العهد على صدره العاري، وكسوة الكعبة على وجهه، بلحيته البيضاء وعينيه المغمضتين في طريقه إلى مثواه الأخير، مستسلماً إلى المصير الذي هو مصير الخلق أجمعين.

تم ربط الكفن، وأغلق التابوت، ودقت الساعة الأثرية في دائرة بردة السعادة مؤذنة بدنو ساعة الرحيل. بدأت عملية تجهيز التابوت حيث وضع عليه شرشف، وعلى الشرشف غطاء أبيض مطرز، ولُفّت قدماه بقطعة قماش لازوردي مزهر غطي بكسوة الكعبة، إضافة إلى نُطق مزينة بأحجار كريمة. كما لفع رأسه ومرفقيه بالشالات، وألبس شاشية حمراء على أطلس أخضر. وبينما كان في بداية الأمر نشاز واضح بين التابوت العاري وزخارف دائرة بردة السعادة، فقد زال هذا النشاز الآن وصارا متساوقين.

تراجع القوم كلهم ما عدا العواميد المزينة والجدران الملونة واللوحات المزخرفة. رأس التابوت متوجه نحو جناح الحريم؛ ومن نافذة الدائرة العليا التي تقع على اليسار تبدو الستائر الخضراء المطرزة بخيوط الذهب والشبكات الذهبية واللوحات التاريخية الثمينة والمصاحف الكريمة. ثم ارتفعت من أمام قاعة العرض أصوات خطوات، وإذا بأحد أصهار السلطان الراحل يمشي بخطوات ملؤها الحزن والأسى نحو جدران دائرة البردة النبوية السعيدة، فوقف عند الجدار وفتح أكف الضراعة مبتهلا ببعض الكلمات الشجية، ثم دوى صوت بكائه في القبة المزينة.

الساعة التاسعة...

أمام باب بردة السعادة رجال قد ارتدوا أزياءهم الرسمية، على صدورهم نقوش باللون الأخضر والبنفسجي. سفراء الدول والضباط ينتظرون خروج النعش؛ الأجانب ينظرون إلى أرجاء دائرة البردة الشريفة بعين المتعجب الحيران. العلماء، ومن ورائهم رجال ذوو أكمام واسعة وعمائم مذهبة قد حضروا جميعا. الكل الكل يتابع المشهد في جو من الخشوع، وكلما مضى الوقت كثر الازدحام. هذا، وقد جاء ولي العهد، وأبناء السلطان بأزيائهم الرسمية، فلا يبدو تحت أشعة شمس شباط إلا لمعان الأوسمة والنياشين.

وفجأة فتح باب دائرة البردة النبوية السعيدة، فتحولت الأنظار إلى تلك الناحية، وهرولت الجموع إليه حتى اكتظ جوار الباب بحشود الناس. القلوب تخفق بشدة، والأعناق تتطاول، والعيون المحدقة تريد أن ترى التابوت المهيب الذي يحمل جنازة السلطان الراحل. وأخيرا خرج التابوت على رؤوس الأصابع وقد غشي الجو هيبة وجلال، تتقدمه شاشية السلطان الحمراء والأوسمة المرصّعة بأحجار الألماس وأكسية الكعبة المطرزة؛ وأركان الدولة والضباط واقفون بخشوع يحيّون سلطانا عبقريا عظيما أقام الدنيا وما أقعدها.

ثم وضع التابوت أمام باب دائرة البردة الشريفة على مكان مرتفع. وجاء إمام جامع الحميدية بثيابه الخضراء المزركشة ونيشانه الخاص، فصعد المنصة وأجال النظر حوله ثم نادى بصوت حزين: "ما تقولون في حق المرحوم؟" وإذا بصوت جماعي يدوي بين أشجار السرو: "سلطان كريم..."

وبعد قراءة الفاتحة انتهت طقوس الغسل والتكفين، فحمل التابوت ومرّ ببطء أمام مكتبة السلطان أحمد الثالث التي تقع على يمين قاعة العرض، ووصل إلى باب السعادة حيث أقيمت صلاة الجنازة، وبدأت أعمال ترتيب موكب التشييع، وحضر الأمراء والأعيان والولاة ورجال القصر. وكان يسمع بين الحين والآخر أصوات الموظفين ينادون بأسماء الأعيان والأمراء والعلماء.

أخيراً تم ترتيب الموكب، واصطف أمام أشجار السرو خدام السلطان والضباط وفرقة الحرس السلطاني. وبدأ الموكب العظيم بالمسير... ضباط الأندرون ورجال القصر حملوا النعش على أكتافهم، ومشى شيوخ الطرق الصوفية ودراويش التكية الشاذلية أمامه، وفرقة من المشاة أخذوا يسيرون بخشوع واضعين أسلحتهم على أكتافهم.

سار الموكب بين أشجار السرو العملاقة سيرا بطيئا من باب السعادة حتى باب السلام؛ وخرج من باب السلام بجلال وسط أصوات التهليل الحزينة التي تخشع لها القلوب وتهتدي بها النفوس إلى معنى الأوبة إلى الخالق المتعالي، وانعكس صدى تلك التهليلات الشجية على جدران باب السلام الحجرية. كان هذا الصدى يوقظ المشاعر ويذكرها بروح السلطان سليم الثالث الأصيلة؛ وحق له ذلك، إذ كل نغمة تتردد في أرجاء الأندرون لا يمكن لها إلا أن تذكر بروحه الرقيقة الطاهرة، فله رحمه الله أياد بيضاء على القصر العثماني.

وارتفعت أصوات ضباط الأندرون بالصلوات الشريفة على النبي ﷺ، فانعكست على جدران القصر الهرمة كأنها صرخة حزينة لروح دولة آل عثمان. الكل يمشي وراء النعش الجليل بوقار... ما أكثر ما شهد ورأى هذا الباب العظيم! كم من سلطان شيع من هنا، كم من أمير ووزير... وكم من عين دامعة وقلوب باكية...

وفي وسط هذا الجو الروحاني المهيب كنتَ تسمع ترنيمات الدراويش الأسيفة ونغماتهم المثيرة للشجون، وترديد كلمات التوحيد بلسان عربي مبين، وهمهمة الدعوات ودمدمة التسبيحات وجلجلة التكبيرات على ألسنة شيوخ التكية الشاذلية. كما تجد أنه قد امتلأ ما بين باب السلام والباب العالي بسيارات ضباط الألمان والسيارات الخاصة التابعة للقصر، وتلحظ فتيات متلفعات بالسواد وقد أطللن من نوافذ بعض السيارات وعلى وجه كل واحدة منهن برقع شفاف يتابعن من خلاله الحشد العظيم

والموكب الجليل. كذلك ترى أمام الكنيسة البيزنطية والمتحف العسكري أفراد فرقة المنشدين التابعة للجيش وقد اصطفوا بعمائمهم الضخمة وسراويلهم الحمراء وصدرياتهم المزخرفة بالخيوط الذهبية وأعلامهم الحمراء الملفوفة ليلفوا التحية للخليفة الراحل وينشدوا أشجى الألحان وأعمقها حزنا.

إنه ليوم مشهود حقا، الميادين والشوارع تغص بالجماهير، يوم أشبه ما يكون بيوم الحشر. أخيرا خرجت الجنازة من الباب العالي... مئات من الجنود وقد اصطفوا على جانبي الطريق بدءا من جامع أياصوفيا إلى ضريح السلطان محمود. أغصان الأشجار الضخمة والمنازل والنوافذ والأسطح مكتظة بالرجال والنساء والأولاد، والنعش العزيز بتقدم وسط التكبيرات والتهليلات والدعوات المأثورة مسلّما مودّعا الرعية المخلصة، متلقيا منهم أخلص التحيات وأنقى العبرات. نوافذ المنازل مليئة بالنساء اللواتي يمسحن دموعهن بالمناديل، وإذا بامرأة لم تتمالك نفسها من البكاء فارتفع صوت بكائها وعويلها إلى عنان السماء، واتكأت على الجدار لكي لا تقع على الأرض من شدة التأثر. القلوب الرقيقة خشعت عند رؤية الموكب الحزين واعتصرها الألم فتهاطلت دموعها بغزارة أسفاً على ذلك السلطان الذي قلّ في التاريخ العثماني نظيره. تم إدخال النعش إلى الضريح وسط التكبيرات والتهليلات العالية، وأنزل جثمان السلطان عبد الحميد في لحده.

ونحب أن نذكر هنا أحد المشاهد المؤثرة، وهو أن السلطان "وحيد الدين خان"، آخر سلاطين آل عثمان، عندما جاء إلى القصر لإجراء طقوس الجلوس على العرش كانت جنازة أخيه الأكبر السلطان محمد رشاد ممددة في دائرة البردة النبوية السعيدة. فأخذ قسطا من الراحة في قصر يغداد، ثم توجه نحو باب السعادة لإنهاء طقوس الجلوس، فرأى أمام باب قاعة النافورة نعش السلطان محمد رشاد، فتوقف ليقرأ الفاتحة على روح أخيه وقد أثر في قلبه المشهد أيما تأثير، إذ كان هو في طريقه إلى كرسي السلطنة بينما كان أخوه في طريقه إلى مثواه الأخير، فقال لمن حوله: "سبحان الله، ما أقصر المسافة بين كرسي العرش والقبر."

المنصة المرمرية أمام دائرة بردة السعادة. يوضع عليها السلطان بعد التكفين للترحم عليه ودعه قبل دفنه.